

صوم غاندى السياسى

الإستاذ عبد العزيز محمد الزكى



الصوم تعليم دينى فرضته جميع الشرائع السماوية ، وسننه مختلف الأديان الأخرى . وجعلت من أدائه طاعة لله وتقرباً منه ، ومن مخالفته خروجاً على أوامره . ويعتبر الدين الهندوكى من بين تلك الأديان التى تشرع الصوم فى أوقات محدودة ، وتلتزم الهندوكيين بقضائها ترفاً لله . ولكن الشعب الهندوكى العربى فى الروحية لم يكتف بصيام الأيام التى يفرضها الدين ، ويقدم طوعية قربان صومه لله كلما نزلت به عنة ، أو أشقته مصيبة ، أو كلما ارتكب آثاماً يود التكفير عنها . وكانت أم غاندى من أولاء الهندوكيات الورعات المتعشقات التى لا تهمل صيامها الدينى ، فضلاً عن أنها كانت تنذر فى مناسبات مختلفة أن لا تأكل إلا إذا رأت الشمس . ويحدث أن تمضى الأيام تباعاً دون أن تأكل شيئاً لأنها لم تستطع رؤية الشمس خلف سحب الهند الكثيفة . فعوذ غاندى منذ صغره أن يرى أمه تصوم صوماً طويلاً شاقاً ، ترك فى مخيلته أثراً مطبوعاً ظهر مفعوله فى حياته العامة .

فابتدأت زهرة غاندى الروحية تنبى فى أحضان تلك الأم النقية الصالحة التى تتمسك بفروض دينها . ثم أخذت تنمو حينما تلقن أول مبادئ الديانة الهندوكية ، ولس من مواطنيه تعلقهم بها ، ووجدتهم شعباً يؤمن بدين يحرم أكل اللحوم ، وينبذ لذيق الطعام ، ويمسح على الثياب ، ويشتهر بالزهد والتعشف . فشب غاندى نباتاً لا تنيره شهوة الأكل ، ولا يغريه فالخر المأكولات ، ويحترم تقاليد دينه . ففرست حياته الأولى مع أمه ، ثم نشأته فى ربوع شعب دينى ، المبادئ الروحية فى نفسه . وأصبح فكره ينزع دائماً إلى الناحية الدينية والروحية ، وينبغ الحقائق الدينية على أى حقيقة تخالفها . وظهر كل ذلك واضحاً حينما خاض معترك الحياة الاجتماعية ، فكان يحارل أن يحمل كل ما يقابله من مشاكل بالطرق الدينية . وكان الصوم أول هذه الطرق كان غاندى فى أول الأمر يصوم صيامه الدينى ، أو يزيد

عليه أياماً ممدودة ، كلما طرأت مناسبة شخصية تدفعه لذلك . ولكن حينما أخذ نفوذه يقوى فى جنوب أفريقية ، وأصبح له أتباع مسئولون عن سلوكهم ونصرفاتهم ، حتى إذا ما صدر عنهم أى فعل يخالف تعاليم الدين ، أو يتعارض مع أصول الأخلاق ، أو يغاير ما ينادى به من مبادئ سياسية ، حتى عليه أن يحزن لحسدونه ويتألم ، ويشعر أنه مسئول عما أتوه من آثام ، وينذر صوم عدة أيام أو بضعة أسابيع ليكشف عذاب الصوم ما يحسه من وخز الضمير وكآبة الروح ، أو يخفف ضغط الشعور الأليم بالمسؤولية من ناحية ، وليكفر عن آثام أتباعه من ناحية أخرى . فكان صومه يؤثر فى نفوس أتباعه فيتألمون لأله ، إلا أنهم فى الوقت ذاته كانوا يجلبون مقاساته آلام صوم متواصل من أجلهم بدون أن يقترب ذنباً يستحق أن يطلب عنه الغفران . ولذلك حرصوا على ألا يقتربوا من المخالفات والأوزار ما يؤلم غاندى ، فيضطروا إلى أن يلجأ إلى صوم يسبب له مايكرهون من العناء والتمب فلما وجد غاندى ما لصومه من أثر عميق فى نفوس الهندوس ، أدرك بفطرته النفاذة ، وفهمه السليم لروح شعبه أنه يمكن أن يتخذ من الصوم ذريعة روحية مفيدة ، يخدم بها أغراضه الإصلاحية من تقويم أخلاق قومه ، وإصلاح حياتهم المادية والاجتماعية ، وترقية مستوهم السياسى ؛ كما أدرك أن قوة مفعول الصوم فى نفوس الهندوس سببه أنهم قوم لا يرمون إلا قوة الروح ، ولا يخضعون إلا لسلطان الدين ، فتمدد مخاضاتهم باللغة التى يجيدون معرفتها ويصدقون إليها . فاستعان بالصوم لخدمة مصالحهم ، لأنه يعبر عن قوة دينية ، وعن مظهر من مظاهر القدرة على تحمل الآلام ومقاومة الجوع ، فضلاً عن أنه وسيلة من وسائل تطهير الروح . فسهل عليه السيطرة به على قومه ، ونجح فى استخدامه إلى أبعد حد بحيث أصبح الصوم أمضى سلاح سياسى يعتمد عليه غاندى بصفته الشخصية للقضاء على الاضطرابات والفلافل التى كثيراً ما تحدث فى الهند ، ولتهدة ثورات النفوس الهائجة حتى يشملها الحب والوئام ، أو لتفادى ما تعرض له من أزمات سياسية ، وما يهددها من كوارث اجتماعية . وبرغم توفيق غاندى فى استخدام هذا السلاح الدينى فى السياسة إلى أسباب أهمها :

فهم غاندى العميق لمزاج شعبه الروحى ، ومعاملته بالأسلوب الوحيد الذى يصدح له دائماً .

ثم دقة حساسية غاندى وصدقه فى تدلس خطابا الشعب الحقيقية ، وقدرته الروحية ونفاذ بصيرته التى تخترق شفاف قلوب الجماهير ، وتشعرهم بأن خطاياهم قد مست أعماق نفسه ، فسببت له ألواناً مؤذية من الحزن والألم ، فرضى أن يحتمل غناء الصيام ليعفو الله عنهم . وذلك يوجد الفزع فى قلوب الشعب الذى يخاف على حياة الزعيم الذى يحبونه كل الحب فيضطرون للاستماع لنصائحهم والأخذ بأرائه السياسية والاجتماعية ، حتى لا يعود إلى صوم قد يكلف غاندى حياته ، وتفقد الهند بطلها القدس .

ولقد صام غاندى حوالى خمسة عشر يوماً خلال الخمس والثلاثين سنة الأخيرة من عمره أذكر منها على سبيل المثال ثلاث مناسبات صام فيها غاندى ، لأوضح بعض الظروف المختلفة التى كان يصوم من أجلها غاندى . ولنبداً بصوم سببه أخلاق تذرّه عند ما كان فى جنوب أفريقية يشرف على التعليم فى المدرسة التى أنشأها بمزرعة العنقاء ، وتسمح باختلاط الصبيان والبنات بالرغم من تباين نشأتهم واختلاف أوساطهم . تحدث أن اعتدى أحد التلاميذ على مفات فتاة ، فلما سمع غاندى بهذا النبأ الأليم تألم وشعر أنه كشرّف على هذه المدرسة مسئول عما ارتكب ، فعاقب نفسه بصوم تسعة أيام ليخفف بها وطأة رجز الضمير وتأنيبه من جهة ، وليطلب المغفرة من الله لهذين الآثمين من جهة أخرى . فكان لصيامه وقع أليم فى أهل المزرعة طهر ما علق بالنفوس من أفكار سوداء ، كما حرر نفس غاندى من كل ما انتابها من قلق واضطراب ، وأحل محل غضبه على المجرمين إحساساً بالمطف والشفقة عليهم ، فتوثقت العلاقة بينه وبين الأولاد والبنات .

أما عن الصوم الثانى فصامه غاندى بعد أن نزع من جنوب أفريقية ورجع إلى الهند بصيته المعروف بمحاربة الاستعمار البريطانى ؛ فاستطاع بعد أن درس حال الهند من جميع النواحي أن يتولى زعامة الشعب الهندى . ثم أخذ يطالب باستقلال الهند الذاتى الذى وعدت إنجلترا أن تمنحه لهند بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، نظير ما قدمته لها من مساعدات حربية . فلم تكف الحكومة الإنجليزية بمراوغته ، بل أخذت تشدد الرقابة على

الهند ، كما فرضت عليهم أحكاماً عسكرية صارمة . فمزّم غاندى على أن يحاربها حرباً سلمية ، أى يحاربها بسلاح العصيان المدنى الذى حاربها به من قبل فى جنوب أفريقية ، واستطاع أن يلغى ضريبة الثلاثة جنيهات المفروضة على الهند هناك . إلا أنه شعر بصعوبة قيام شعب يقرب من أربعمائة مليون نسمة ، يختلف فيما بينه من حيث الدين والمعادن واللغة ، بمصيان إجماعى قبل أن تشبع روح كل فرد بأساليب العصيان المدنى السلمى . وهذا يتطلب تنظيماً دقيقاً لحركة العصيان ، حتى يتبعد عن العنف والشغب والفوضى وحوادث السرقة والتخريب والحرق . فأخذ غاندى يحرن الشعب بأدى الأمر على المصيان ، بأن طالهم بمقاطعة كل ما هو إنجليزى . فقاطع الشعب التوظيف فى المحاكم الحكومية الظالمة ، والتعلم فى المدارس والجامعات الإنجليزية التى تفسد عقلية الهند ، وشراء السلع البريطانية . كما طالهم بمخالفة كل قانون جائر يضر بمصالحهم . وبعد أن تغلّت مبادئ المقاومة السلمية فى النفوس ، وبعد أن بلغت حماسة الهند من القوة بحيث لا يستطيع إخفاؤها ، أعلن غاندى العصيان المدنى العام فى جميع أنحاء البلاد ، وكان يقطن أنه لن يحدث شيئاً يعكس صفو سلمية هذا العصيان ، ولكن حدث أشد ما ييفضه إذ اصطدم الأهالى رجال الشرطة ، فهاج الشعب ، وأطلق الرصاص ، وأشملت النيران ، وارتقت الدماء ، فانتشرت الفوضى ، وكثرت حوادث النهب والإتلاف . فأرغم غاندى على أن يوقف هذا العصيان وبعثته ثلاث مرات متتالية ، وعلى أن يصوم أربعا وعشرين ساعة من كل أسبوع تكفيراً عن الدم الذى أريق ، وقصاصاً لنفسه على فظائع بنى قومه ، حتى يشعرهم بمهجة عنفهم ، ويلزمهم حد اللائع الذى يجب عن طريقه أن تنال الهند استقلالها .

وكان الصوم الثالث سببه ما بين الهندوكيين والنبوذيين من نزاع ، لأن مشكلة النبوذيين من أولى المشاكل الاجتماعية الهندية التى رجة لها غاندى كثيراً من عنايته . وذلك لما وجد الهندوكيين يحتقرون النبوذيين أشد الاحتقار ، ويمتبرونهم أنجاساً ، ويحرمون معاشرتهم أو الاتصال بهم . فحاول غاندى أن يحوّل النزاع الاجتماعى بين جميع الطوائف الهندية ، ويعطى النبوذيين من الحقوق السياسية مثل ما لأى هندي آخر . فكان يظهر فى كل